الأدب فى سير أعلامه :

٣ ـ تولســـتوى . . . !

[قة من القمم الشوامخ فى أدب هذه الدنيا قديمه وحديثه]

للأستاذ محمود الخفيف

طفولة ونسب

ويتصف الطفل منذ نشأته بصفة لعلها وليدة شعوره القوى بذاته ، وتلك هى سرعة بكائه ، وما يبكى من غيظ فحسب ، فان عينيه لتدمعان إذا لقى حنواً أو مودة ممن هم أكبر منه ، وإن عجباً أن يبكى فى موضع السرور ليعبر بدمعه عن امتنانه ، فهل كان لذلك سبب آخر هو إحساسه بيتمه منذ أن فطن إلى موت أمه ؟ ولكنه بكاء شكاء من قبل أن يفطن إلى ذلك ، وهو لا يملك أن يحبس دمعه إذا رأى غيره يبكى وإن لم يدر ما بكاؤه ولقد يُغضب غيره حتى يبكيه ثم لا يستطيع إلا أن يبكى معه ؛ كتب فيما بعد عما كان بينه وبين تلك البنت التى كان يربيها أبوه فى أسرته فقال : « أتذكر أنى أخذت وقد تعلمت الفرنسية أعلمها حروفها الهجائية ، وسار ذلك سيراً طيباً أول الأمر ، وكنا يومئذ كلانا فى نحو الخامسة من عمره ؛ ولكن التعب أدركها فأمسكت عن نطق الحروف كما طلبت إليها ، فألححت عليها فبكت ثم إذا بى أبكى مثلها ، ولما دخل علينا من هم أكبر منا لم نجد ما نقوله بسبب ما كنا نذرف من الدمع » .

وكان ليو أكثر من غيره من الأطفال حباً للثناء عليه وابتهاجاً بما يسمع من عباراته ، وذلك أنه يفطن إلى أن الثناء عليه ينصرف بالضرورة إلى ما يبدى من دلائل الذكاء والنشاط والطموح ، إذ ليس يطمع فى ثناء عليه بسبب منظره أو ملاحة وجهه أو رشاقته كما عسى أن يطمع سيرجى أو نيقولا ؛ فما أبعده عن ذلك كله ، وهو شىء ليس فى طوقه ، وإن كان يتمنى بينه وبين نفسه لو وقعت معجزة فغيرت شكله إلى ما يحب من وجاهة

إجرامية منشؤها السكر والعربدة . وهى الأقسام القريبة من بؤر الدعارة ومحال الخمور .

ومن أجل ذلك حاولت بعض الدول الكبرى تحريم الخمر فى داخل أراضيها كأمريكا ، وحرمت بعضها تناولها فى أوقات معينة وهى ترمى إلى تقليل ضررها الجسمى والاجتماعى ما أمكن ذلك .

وبعد : فقد علم الله العليم الحكيم ما فى الخمر من ضرر جسيم وبلاء عظيم فحرمها الإسلام الحنيف وأوجب عقاب شاربها .

ويلاحظ أن العقوبة التى وضعت لهذا الجرم فيها إيذاء مادى للبدن . كما أن فيها إيلاماً وامتهاناً للنفس يتناسب مع امتهان الشارب لنفسه وحقارتها لسكره وعربدته حتى تكون زاجرة رادعة له ولغيره من العابثين المستهترين وهنا يستقر النظام ويستتب الأمن

ثمانون جلدة : عقاب فيه بساطة التشريع وبساطة التنفيذ جريا على عادة البساطة فى الشريعة الإسلامية السمحة والإسلام دين الفطرة ، ولكن الإسلام مبالغة فى الكرامة الإنسانية وإرادة للستر وتخفيفا على العباد اشترط أن يؤخذ الشارب ورائحة الخمر فى فمه .

فأوجب لثبوت الجريمة أن تكون مادتها موجودة وهى رائحة الخمر إلا إذا ذهبت الرائحة لبعد المسافة وطول الوقت ، واشترط لذلك أن يشهد على الشارب اثنان تتوفر فيهما العدالة وعدم التجريح وتنتفى التهمة وتنتفى معهما العقوبة بأية شبهة يظنها القضاء كأن يثبت أن المتهم شربها للعلاج مثلا .

ولو رجع فى إقراره بعد أن أقر بالشرب لا يحد ، وكذلك لو شهد الشاهدان ولا رائحة للخمر فى فمه .

فلله ما أسمى هذا التشريع وما أعدله وما أبعد أثره فى تقويم النفوس وتهذيب الأخلاق وسعادة المجتمع .

إن هذا التشريع هو ما يتطلبه المجتمع اليوم للقضاء على ما فيه من شرور وجرائم ليستريح الناس ويتطهر العالم مما علق به من رجس وآثام ويسير مطمئنا إلى حياة الاستقرار والسعادة والنور والسلام . (كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور)

على علمى
مدير جرجا

وحسن ؛ ولن تقع هذه المعجزة أبداً فليس له إلا أن يرقى بنفسه ويبدى مقدرته ، ولهذا كان إذا دعى إلى عمل جمع عزمه وحرص الحرص كله على أن يكون فى أحسن حالاته ، ومن ذلك مايكون منه بين يدى أبيه حين يدعوه إلى تلاوة قصيدة من شعر بوشكين أو غيره من الشعراء ، أو تلاوة أقصوصة من كتاب أو من ذاكرته أو حين يناقشه فى دروسه ليعلم مبلغ فهمه .

وكان شغفه بالموسيقى عظيما يتفتح لها قلبه وتنفعل لها نفسه ويبتهج خاطره إذا سمع لحناً وانشغل غيره عنه فهو مقبل عليه بقلبه وليه كأنه مسحور به لا يكاد يعى دونه شيئاً .

ويحب ليو الناس جميعاً لا يضمر سوءا لأحد ، ولا يتجهم لأحد ، ويكره أن يرى شخصاً يتألم أو تمشى فى وجهه كدرة الهم كما يكره أن يعبس أحدهم فى وجه صاحبه أو يتكره له أو يتجهمه بالقول ، فالصفاء والمحبة والمودة من خصائص طبعه ومقومات خلقه

غلام نابه

تمكنت من نفس الصبي روح المحبة للناس جميعاً ، ولسوف تتوثق على الأيام وتزداد فيكون لها أثرها البعيد فى تكوين آراء الكاتب العظيم فى غد ، وفى توجيه روحه وتحديد مسلكه فى مواطن كثيرة من مواقف حياته .

وكان يحب الطفل فيمن أحب فى طفولته كبيرة الخدم العجوز التى لبثت من عمرها فى القصر سنين طويلة لايدرك مدى طولها ، والتى تقص عليه أجمل القصص عن أجداده وأحداث أسرته وتلاعبه وتضاحكه كلما ذهب إليها أو كلما لقيته فى إحدى ردهات القصر أو حجراته ، وتخبىء له الحلوى فى ثيابها لتلاقيه بها أو تفتح له خزانتها ليأخذ منها ما يحب ؛ وكان كذلك يحب كبير خدم المائدة لأنه يهش له دائماً ويظهر المودة والعطف ؛ ولحق أنه كان يحب الخدم جميعاً وإنما يختص بمحبته من هم أكثر تودداً إليه .

دخل يوماً على العمة تاتيانا يشكو إليها أنه رأى منظراً كدره وآلمه ، وذلك أنه شاهد أحد الفلاحين يساق إلى حظيرة حيث أوثقه رئيسه وضربه ، ولما سألته عمته لم لم يحل بينه وبين الضرب أطرق فى خجل ولم يحر جواباً ، وكأنما يزداد ألماً ألا يستطيع أن يتدارك ما فاته .

وبينما كان أفراد الأسرة كبارهم وصغارهم فى الثوى الكبير ذات ليلة من ليالى الشتاء أشار الكونت نيقولا رب الأسرة بسبابته إلى الحجرة المقابلة وكانت مفتوحة ، فوقعت أعين الجالسين على منظر أثار ضحكهم ودهشتهم فقد عكست المرآة فيها صورة أحد الخدم يمشى على أطراف أصابعه ، وما زال حتى بلغ صندوق الطباق فسرق منه قدراً وانصرف ، وكان الكونت ينظر إليه ضاحكا لم تزل عنه بشاشته ، بل لقد صحب تلك البشاشة شيء من التسامح والرفق ، ولما رأى ليو تسامح أبيه امتلأ سروراً منه وازداد إعجاباً به ، وعند انصرافه لثم يده فى حماسة ظاهرة ليريه مقدار ما فى نفسه من رضاء على ما أظهر من رحمة ورفق .

وامتد عطف الصبي حتى وسع الحيوان فقد أحزنه ذات يوم مرأى كلب مربيه والخدم يشتمونه ، وكان ذلك الكلب العزيز الرمادى اللون ذو العينين الجيلتين والشعر الناعم الجعد على حد وصفه قد أصيب بكسر ساقه إذ مرت فوقه عربة ، فأعدم إذ لم تعد بهم حاجة إليه فى الصيد ؛ وعجب الصبي لما رأى بقدر ما تألم منه . وإنه ليروى هذا الحادث بعد فيما يروى من حوادث الصغر مما يدل على شديد تأثره به ، قال : « كان الكلب يعانى الألم وكان مريضاً وقد شنق بسبب ذلك . لقد أحسست أن هناك خطأ فيما يقع ، ولكنى لم أجرؤ على الثقة فى شعورى حيال ما أرى من تصميم ثابت من جانب قوم أحترمهم » .

ووقف الصبي ذات يوم يمسح بكفه الصغيرة حصانه ، وقد وثب عن ظهره إلى الأرض إذ نبهه أحد الفلاحين وقد رآه يضربه ألا جدوى من ضربه لأنه متعب ، ونظر الصبي إلى الحصان وهو يلهث ويخرج أنفاسه فى زفرات مؤلمة متقطعة ، وجنباه يرتعشان والعرق يتبخر منهما ، فبلغ من حزنه أنه « أخذ يقبل عنقه الذى بلله العرق ويسأله الصفح عما أوقع به من أذى » ...

وممن وسعهم عطف الصبي وشملهم بره أولئك الفقراء الذين كان يعدهم الناس من الصالحين الأولياء ، وكانوا كثيرين فى تلك المنطقة لقربها من كييف حيث يتقاطر الحجيج ليزوروا مواضعها المقدسة ، وكان مرأى هؤلاء فى أسمالهم البالية وبلاهتهم وتمتماتهم وعدم اكتراثهم لأى شيء أمراً يثير الدهشة فى نفس الصبي كما يبعث فيها كثيراً من الرهبة ، ويوحى إلى خياله أطيافاً مبهمة وصوراً غامضة ؛ وكان ينبئه إخوته أن فى هؤلاء الصالحين سراً لا يمكن كشفه يجعلهم على الرغم من حقارة مظهرهم وقذارة

أسمالهم أقرب الناس إلى مرتبة القديسين ، وقد وصف تولستوى هذه الطائفة فى شخص « جريشا » الذى تحدث عنه فى كتابه « عهد الطفولة » وقد كتبه وهو فى الخامسة والعشرين من عمره قال : « كان جريشا شخصية مخترعة ، وكان ينشى منزلنا كثير من هؤلاء البله الطيبين ، وقد عُلّمت أن أنظر إليهم نظرة الاحترام الشديد وهو صنيع أحفظه لمن قاموا على تربيتى ، ولئن كان بين هؤلاء من بعوزه الإخلاص أو من تقضى فيما سلف أياما فى حالة من الضعف والادعاء فان غايتهم فى الحياة كانت على ما يبدو من سخفها فى الواقع بالغة السمو ؛ حتى إنه ليسرنى أنى تعلمت فى طفولتى على غير وعى منى ما وصلوا إليه بأعمالهم من علو ، لقد صنعوا ما تحدث عنه ماركس أورليوس حين قال : « ليس هناك أسمى من أن يتحمل المرء الازدراء من أجل أن يحيا حياة صالحة طيبة » إن الطموح الإنسانى إلى المجد والعظمة أمر لا يمكن تجنبه وهو كذلك بالغ الضرر إذ أنه يفسد كل عمل حميد ، فلا يسع المرء إلا العطف على أولئك الذين لا يقتصرون على بذل جهدهم لتجنب أن يحمدوا فحسب بل ويتعرضون فوق ذلك للاحتقار ...

ومما كان يبهج نفس الصبى ويحبب إليه الحياة ما كانت تحتشد له الأسرة من مظاهر الفرح فى أعيادها وعلى الأخص عيد الميلاد ، فكانت تشيع البهجة فى البيت كله فترى دلائلها فى كل وجه وتحس روحها فى كل ناحية ، فرب الأسرة وسيداتها وأبناؤها وجميع من فى القصر من خدم يتبادلون المحبة والمودة ويبدون سعداء فى ثيابهم الجديدة ويستمتعون بما طاب من الطعام والشراب ، حتى الفلاحين ينالهم حظ من هذا الفرح فتطيب نفوسهم وهذا ما ينشرح له صدر الصبى .

وكان خروجه إلى الغابة للصيد مع أبيه وإخوته فى العربات الجميلة أو على ظهور الخيل المسومة الفخمة يحيط بهم رهط من الأتباع وعدد من كلاب الصيد مما يملأ قلب الصبى سروراً وبهجة ، وكثيراً ما كان يبهجه كذلك الخروج إلى الغابة لغير الصيد فى صحبة العمة تاتيانا أو فى صحبة جدته أو غيرهما من المربين فيرتع ويلعب ويقتطف ما شاء من الزهر ، ويستمع إلى القصص حتى يعود إلى البيت وهو يطفر كما يطفر العصفور من فرط المرح .

وفى ليالى الشتاء كان تحلق الأسرة حول الموقد والاستماع إلى الموسيقى أو القصص الممتعة ، وتبادل العطف بين الكبار والصغار وبين بعضهم مع بعض مما يحبه الصبى ويأنس به ويحرص كل الحرص على شهوده ...

وليس ثمة إلا حجرة الدراسة تخلو من البهجة ويلقى فيها من دروسه عنتاً ورهقاً ، على أن عطف معلمه عليه يخفف عنه ، ورغبته فى أن يرقى بنفسه ويكتسب من دواعى الفخر ما يباهى به إخوته يجعله يتكىء على نفسه ويصبر على مكاره الدرس .

وفيما عدا هذا كانت طفولته بهيجة محببة إلى نفسه ولن تجد وصفاً لهاتيك الأيام السعيدة الحلوة أبلغ مما كتبه عنها بعد ذلك فى أول كتاب له وهو كتابه « عهد الطفولة » قال « ما أسعد هاتيك الأيام الحلوة أيام الطفولة التى لا تنمحى ذكراها ، وكيف ينسى امرؤ أن يحب ذكرياتها وأن ينعم بها ؛ إن هذه الذكريات لتنعش روحى وتسمو بها ، وهى المنبع لأعظم فيض من السرور يغمرنى ، وأى وقت هو خير من ذلك الوقت الذى لا يكون للحياة فيه من دوافع غير دافعين هما فى الفضائل أجل فضيلتين : اللهو البرىء ورغبة النفس فى الحب رغبة لا تحد » .

(يتبع) **الخفيف**

إدارة البلديات العامة

تقبل العطاءات بإدارة البلديات (بوستة قصر الدوبارة) لغاية ظهر يوم ٤ مارس سنة ١٩٤٧ عن عملية مياه ارتوازية ببلدة نقادة

وتطلب الشروط والمواصفات الخاصة بذلك من الإدارة على ورقة دمغة فئة الثلاثين مليما مقابل مبلغ ١ جنيه للنسخة الواحدة عدا مصاريف البريد .

٦٧٨٧